افريقية فرأت ان الاهالي كلهم لابسون الاثواب وبارجلهم الاحذية. وملابسهم كلها من المنسوجات القطنية والحريريَّة الكثيرة الالوان الغامقة كالاحمر والازرق والاخضر وغير ذلك وهم يخيطونها ببعضها رقعًا فتراهـا كالاعلام لتعدُّد الوانها ويُرى على وجوه اكثرهم جراح العتق وهذا ممَّا يدل على انهم كانوا اولًا عبيدًا في جملة جهات متمدنة ثم أُعتقوا فجاؤوا وسكنوا هذه الارض. ولهم مزارع وحقول وسوق تجارة واغلبهم من المسلمين (التتمَّة لعدد آخر)

رسم المجاري النهريَّة في لبنان

للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس الجغرافية الشرقيَّة في المكتب الشرقي

١ افادات عمومية

باي اسمٍ ندعو مجاري المياه في لبنان أندعوها انهارًا او جداول او سيولًا فقط. ذلك ليس بامر سهل لولا انَّ العادة قد غلبت على السن القوم فيـدعون بالنهر مسيل المياه عمومًا فيقولون نهر بيروت بل يقولون نهر انطليـاس مع انَّ مجراه لا يكاد يبلغ خمسة كيلومترات وسبب ذلك انَّ العرب لم يعرفوا في جزيرتهم الَّا الميـاه الجارية في بعض فصول السنة وتلك الاودية والمياه الجارية جريًا متواصلًا بلا انقطاع سواء تبلغ البحر او تنصبُّ في نهر آخر (١

فما يبقى لنا سوى ان نجاري العادة المألوفة التي لا تخلو من سند كما اشار الى ذلك اليزابي روكلو في كتابهِ عن الارض حيث قال (ص ٣٥١): انَّ كميَّة المياه التي تجري في مسيل دون آخر لأمرٌ عرضي يختلف في قارة دون أُخرى وفي بلد دون بلد على مقتضى خطر مجمل المجاري المائيَّة فلو اعتبرتَ مثلًا بعض انهار اوربَّة وعرضتهـا بانهار اميركة كالامازون وما ينصبُّ فيهِ من الاودية لِمَا استحقَّت بان تُدعى جداول. ثم انَّ كميَّة المياه ليست بثابتة بل تختلف على مدار السنة. وبعض الانهار التي كانت في سالف الازمنة على

١) وقد افرز كتبة الصليبيين بين هذين الصنفين فان غليموس الصوري يدعو باسم « rivus » كوادي المعاملتين وسمَّى الانهار كنهر الكلب « fluvius »

سعة نهر المسيسبي قد صارت بعد التقلّبات الطارئة على سيَّارتنا « انهارًا بلا ماء » لانَّ للانهار كما للانسان حياةً فتنشأ وتزخر ثم تنقص وتتلاشى . اه

ولا ريب في انَّ الانهار اللبنانية كانت في سالف الاعصار وعلى الأقلّ في الاطوار السابقة للتاريخ اعظم منها اليوم واكثر ماء . وكفى دليلًا على قولنا ان ننظر احواض هذه الانهر الفسيحة وسعة مسايلها القديمة . فانَّها تنبئ صريحًا باقتصار مجاري مياهها . وربَّما وُجدت في اعالي الاودية مغاور يعلو بعضها البعض كانت المياه تتبجّس منها . فمن فحص هذه الاغوار وسعتها وآثارها الباقية تحقَّق ان كميَّة المياه كانت اوفر منها اليوم

وما يُقال عن نقصان مياه الانهار اللبنانية في الزمن السابق التاريخ يُرجَّح ايضًا اثباتهُ على رأينا للقرون التاريخيَّة . والشاهد على صحَّة قولنا ما تراهُ من الحواجز وسدود الانهار التي تكوَّنت عند مصابّها في العهد التاريخيّ وكذلك السهول المجاورة لهذه المصابّ فانها تاريخيَّة العهد . وكانت هذه الانهر قديمًا بعد خروجها من الوديان التي منها نبعت تبلغ البحر توًّا . وكان لا بُدَّ لها لبلوغ البحر من كميَّة عظيمة من المياه ليمكنها ان تظفر بما تلقاهُ في وجهها من العوائق كمقاومة الامواج البحريَّة وهبّ الرياح ورُكام الرمل الذي تنقلهُ السوافي

ولدينا ادلَّة اوضح على كثرة مياه بعض المجاري المائيَّة . انَّ قناة الرومانيين عند نبع نهر بيروت تدلُّ صريحًا على ان اصل هذا النبع كان ثمَّة في الاعصار الاولى لتاريخنا . وكذلك قد قاس العلماء كميَّة المياه التي كانت تجري منها فقدَّروها بمتر مكعَّب في الثانية وذلك دون ان يصيب المزدرعات اذًى من قلَّة السقي . امَّا اليوم فلو استقى البيروتيُّون كميَّة كهذه من ذاك النبع لفقدت السهول المجاورة ريَّها وجفَّت فلا بُدَّ اذن من القول بانَّ مياه نهر ماغوراس وهو لقب نهر بيروت قديمًا كانت اغزر منها اليوم

هذا ثم انَّا اوردنا سابقًا في المشرق (٦ : ١٠٩٠) قول اسطرابون بخصوص لبنان والجبل الشرقي وبيَّنَّا انَّ هذا الجغرافي الشهير وهم في تعيينهِ وِجهة هذين الجبلين اذ زعم انهما يسيران من الغرب الى الشرق بدلًا من الشمال الى الجنوب وبينهما سهول البقاع التي أوصلها بالبحر وكان يحسب ان الاردن ونهر الكلب يجريان فيها . وادَّى بهِ وهمهُ هذا الى ان ظنّ بإمكان خوض نهر الكلب والسير عليهِ بالمراكب . ولعلَّهُ يوجد حجَّة لندافع بها عن قول اسطرابون وهي انَّ مياه نهر الكلب كانت في سالف الاعصار

اوفر منها في زماننا . وهذا ممَّا يلوح من الطرق التي تُرى في مضيق نهر الكلب راكبة بعضها فوق البعض واقدمها طريق المصريين والاشوريين تعلو فوق الطريق الحاليَّة نحو ثلاثين متراً . ثم جاء الرومان ففتحوا طريقاً اخرى تحت الاولى ببضعة امتار كان السابلة يجرون فيها الى زمن توتير العربات وهي ايضاً فوق سطح البحر بنحو عشرين متراً كما ترى في صورتنا . فليت شعري كيف يقال انَّ القدماء اختاروا لهم طريقاً في هذا العلوّ لينقلوا اليها عُدَدهم الحربيَّة وامتعتهم بعد العناء لولا ان يقال انَّ مياه النهر كانت اغزر منها اليوم . وعليهِ فان كنَّا لا نوافق اسطرابون في قولهِ عن خوض نهر الكلب (١ فلا بأس من القول بانَّ طبقة مياه هذا النهر كانت اعلى منها في عهدنا وكميتها اوفر . وزد على ذلك انَّ سطح البحر قد انخفض بتمادي الاجيال كما سترى

وخلاصة الكلام انَّنا لا نخالف الجمهور في تسمية مجاري المياه اللبنانية بالانهار وان شاء القرَّاء امكننا ان نقسمها قسمين الانهار الساحلية والانهار البرِّيَّة . فالساحلية ما كانت اوديتها محصورةً قليلة الاتساع واكثر انهار لبنان من هـذا الصنف ألَّا النهر الليطاني والنهر الكبير فيدخلان في حيز الانهار البرِّيَّة وهما ينبعان في اواسط البلاد ما وراء سلسلة لبنان العليا . ومن عاين خارطة لبنان تحقَّق لاوَّل وهلةٍ انَّ هذا الجبل لا يحتمل لسير ميـاههِ مجاري كثيرة الاتساع طويلة المسافة . ولو نظر الناظر من علُ لما قاس بين ضلع لبنان المركزيّ وساحل البحر اكثر من ثلاثين كيلومتراً وكذلك في لحف الجبل لا ترى سهولاً فسيحة رحبة الارجاء يمكن الانهار ان تنساب فيها وتأخذ مداها في التعريج والتوريب كما انَّ الاودية اللبنانية كلّها على خطّ متساوٍ قائمـة على قطب الجبل لا تتحمَّل اتساعاً كبيراً . وفي الواقع انَّ اكثر انهار لبنان سيولٌ لا يتجاوز طولها بعض الاميال تندفع من اعالي الجبال دفعة واحدة الى البحر . وليس بينهما نهر واحد يمكن القوارب فضلاً عن المراكب السير عليهِ . وذلك لكثرة انحدار مسيلها او لما يتوسَّطها من الصخور وهذ ما منع الملاحين ان يخوضوا نهري الكبير والليطاني وكلاهما طويل المسير كثير الالتواء كانَّ الطبيعة اعدَّتهما ليوصلا بين جهات قاصية ZDPV, XXVIII 60

*

١) راجع تاريخ الفينيقيين (ص ٥٠) حيث فنَّد بتشمان رأي اسطرابون

ربَّما اعتاص على الجغرافيين في وصف مجاري مياه البلاد ان يعيّنوا لكل حوضٍ النهر الاصلي الذي فيهِ تنصبُّ بقيَّة المجاري المائيَّة كانهار ثانويَّة. وليس في وصف انهار لبنان مشكل كهذا لمَّا عرفنا من سذاجة تركيب هذا الجبل. والانهار اللبنانية تشبه اجهزة عصبيَّة قليلة الاشتباك تجمع كما في قناة مركزيَّة الرطوبة التي تأتيها بها في فصول الشتاء الجداول الصغيرة الواقعة على جانبيها. امَّا النهر الكبير الذي يسيل في وادٍ متسع لا في مضيق كغيرهِ من الانهار اللبنانية فلهُ سواعد تنصبُّ فيهِ اكبرها وادي خالد يكاد يساوي النهر الكبير بكثرة مياههِ حتى يبقى الناظر في ريب ايّ منهما هو الشِعب الاعظم. وعلى كل حال لا يُنكر ان نبع وادي خالد اقصى سواعد النهر الكبير جنوبًا وابعدها من مصبّ هذا النهر في البحر. وكذلك نهر الليطاني فلأنَّهُ يسيل في وادي البقاع المتَّسع تجد سواعدهُ الجارية اليهِ فسحةً لمجراها وهي كلُّها بالنسبة اليهِ كمجاري ثانويَّة اذ تنضمُّ اليهِ في مسيلهِ الكبير. غير انَّ بعض كتبة العرب قد جعلوا عين جار كنبع نهر الليطاني. وما لا يُنكَر ان مياه نهر الزاعر الذي يجري من هذه العين اوفر من مياه الليطاني التي ينصبُّ فيها. ولكن قد وهم هؤلاء الكتبة بجعلهم عين جار كاصل الليطاني لوفرة مياههـا بدلًا من النبع الأقصى. فانَّ الانهار لا تُحدَّد بما يأتيها من السواعد بل بينابيعها الاصليَّة القاصية. ولولا ذلك لعُدَّ نهر اليرموك كاصل نهر الاردنّ لغزارة مياههِ وهو ينصبُّ فيهِ. وهذا مذهب لا يسلّم بهِ احد

واذا اعتبرنا هيئة مجاري الانهار في مسيرها وجدنا ايضًا انَّ هـذا منوط بتركيب الجبل فانَّ المياه تجري حسب وجهة الاودية وتركيب الصخور. فلمَّا كانت هذه الاودية متساوية ومركَّبة من صخور كلسيَّة لا تقوى على سورة المياه سارت الانهار فيهـا على خط مستقيم واذا وجدتَ النهر يعرّج في سيرهِ فذلك دليـل على اختلاف طبقات المكان الجيولوجية كما ترى في اكواع انهار لبنان الجنوبيَّة كالدامور والاوّلي والزهرانيّ فانَّها بعد خروجها من بين الصخور الصلبـة (grès cénomanien) تبلغ الجهات المركَّبة من الصخور الكلسيَّة السهلة الانحلال فتعدل عن الجنوب مائلةً الى البحر. وهذا يظهر خصوصًا في نهر الاوّلي كما سترى

وهنا لا بُدَّ لنا من استلفات الانظار الى النتائج الوخيمة التي ادَّى اليهـا تجريد

لبنان عن غاباته بحيث صار هذا الجبل اهلًا بالبوادي القاحلة المجدبة وهو حريٌّ بان يكون في سوريَّة بمنزلة جبال الالپ في سويسرة. وذلك انَّ مياه الامطار والثلوج بدلًا من ان تغور في التربة وتنفذ في جذور الشجر صارت تنحدر مسرعةً الى اسافل البلاد وهي تجرف في سيرها ما امكنها من التربة والحجارة والصخور بل هبطت الى الاودية قطع كبيرة من الروابي والجبال بقوَّة السيول والاعصارات. ثمَّ توالت على الجبل آفةٌ أخرى وهي آفة المعزى والمواشي التي تقطع النبات او تقلع جذورهُ ففقد الجبل كل تربتهِ الزراعيَّة وانتصبت صخورهُ المتجرّدة وافتتحت فيهِ الوهاد العميقة المحجرة التي صارت مجازًا لسيول جارفة لم تُر سابقًا. واضحى الماء آفةً للخراب بعد ان كان نعمةً يخصب التربة ويغذي جذور الاشجار بالأملاح النافعة التي يحلّلها. وهكذا تُعلَّل تلك الاعاصير الهائلة التي تصيب في كل شتاء بعض اقسام الجبل فتفسد المزدرعات وتهدم البيوت والطواحين وتخرب في يوم ما لم يُحصَل عليهِ بعد سنين من التعب. وذلك لانَّ اصحاب الارزاق لم يحافظوا في جهلهم على الغابات وقطعوا اشجارها الثمينة بنيةً في الربح فعاد عليهم طمعهم وبالًا

فلملافاة هذه البوائق ليس من وسيلة انجع من نصب الاشجار فانهُ قد ثبت بالتجربة ان مياه الامطار الساقطة على الغابات لا يسيل منها الَّا ستَّة اعشارها فينفذ في الارض ويسيل منها سيلًا منظَّمًا. وكذلك من الوسائط المستعملة للملافاة اضرار الاعاصير ومياه الفيضان الاحواض والقَنَوات لسقي الاراضي وتحريك الرحيّ والآلات. فيصير بين الطبيعة والاعمال البشريَّة كتبادل في الخِدَم. وانَّما كل ذلك يذهب سدًى بخراب الغابات والاشجار

وكذلك يجب ان تنسب لتجريد لبنان من شجرهِ اتّساعَ مسيل بعض الانهار لاسيَّما في الجهات القريبة من السهول كما ترى في نهر بيروت ونهر الجوز. فانَّ المياه عند خروجها من مضيق واديها اذا قوبلت باتّساع مسيل النهر لا تكاد تبلغ القسم العشرين منهُ فلا ترى منها الَّا جدولًا صغيرًا يجري بين الصخور المحطَّمة وركام الحصى والرمل. وإنْ ذلك الَّا ما جرفهُ النهر من اعالي الجبل في ايَّام السيول الشتويَّة. ولو كان الجبل مزروعًا بالغابات لمَا سحا بهذه التربة ولا زحف امام هذه الصخور ولبقي في حدودهِ

وفي الانهار صخور قليلة الارتفاع تعترض المياه فتتحدر هذه منهـا مزبدةً فتلك

الجنادل. والظاهر انَّ هذه الصخور شلَّالات قديمة عملت فيها المياه حتى انتقصت بالاحتكاك وفي انهار لبنان منها كثير لتحدُّر الاودية وميلها. امَّا الشلَّالات العالية قليلة لشهرها شلالة جزّين علوُّها من سبعين الى ثمانين مترًا. وتقلُّ مياهها في الصيف حتى لا يبقى نسبة بين ارتفاعها وقلَّة مائها. وفي نبع اللبن شلَّالة اخرى ومن خواصها الغريبة انَّ للمياه باحتكاك سطحها الذي تهبط منهُ قد تقهقرت نوعاً الى نبعها. وعلى جانبي المياه جداران خرقتهما المياه فيمكن بتقدير ارتفاعهما قياس عمل المياه وتقهقرها مدَّة كرور الاعصار (١. وهذا شبه ما جرى لشلَّالات نياغارا الشهيرة في اميركة

*

والانهار كما لا يخفى بقدر اقترابها من مصبّها تنقص مياهها امَّا بالتبخُّر واما بغيضها في قلب الارض فتبلغ البحر وكميَّة مياهها عندهُ اقلّ منها في مسيرها. وهذا الغالب على انهار لبنان لاسيَّما نهر بيروت ونهر الجوز والزهراني. ومما يُنقص مياه نهر بيروت ما يؤخذ منها لسقي المزروعات في السهل. امَّا نهر الجوز فانهُ في الصيف ينقطع جريهُ الى البحر

والانهار اللبنانية كلّها اذا صبَّت في البحر لا تتَّسع ضفافها عند مصبّها بحيث يتركب منها خلجان او جُوَن بل لا ترى لها اخوارًا صغيرة مستديرة. والسبب لذلك اوَّلًا قلَّة مياهها ثم خصوصاً خلو البحر المتوسّط من المدّ والجزر. والجوَن الواسعة تتكوَّن بعمل الانهار والبحار معًا وذلك في البحار المفتوحة والسواحل المتعرّضة لقوَّة المدّ والاتواء فهي نادرة على سواحل سوريَّة لا تثور الَّا عند هبّ الريح الشمالية. ومعروف انَّ كلّ مجاري مياه لبنان تصبّ في البحر غربًا فلا تجد الامواج البحريَّة قوَّة كافية لتوسيع مصبها وحفر قاعها

وليس عمل امواج البحر كعمل المجاري والمدّ في توسيع مصبّ الانهار. فانَّ هذه الامواج تأتي من غمر البحر منفرجةً وتصدم الساحل على شكل زاوية حادَّة فتقتلع منهُ حطامهُ ثم تنقلهُ الى مصبّ الانهار مع ما تأتي بهِ الامواج المتوازية من الرمل. فالمجرى النهري يميل بازاء هذه القوة العجيبة وينعطف شيئاً فشيئاً ثم يتراكم في عرض مسيلهِ

١) راجع صورتها في كتاب ابرس وغوته (Ebers et Guthe: *Palæstina*, II,20)

حاجز من الرمل مواز للمجرى البحريّ . وبعد مدّة تتكون عند الساحل شبه جزيرة ترى في احد جوانبها الساحل البحريّ وفي الجانب الآخر ضفّة النهر يفصلان الماء المالح عن الماء الحلو على مسافة عدّة اميال وهي تارةً تمتدُّ وتارةً تتشعّب على حسب اختلاف الارياح والمجاري ومدّ البحر

وهذا اصل الحواجز المختلفة العظم من الحصى والرمل التي ترى عند مصبّ اكثر الانهار اللبنانية . والنيل عند مصبهِ في البحر ينقل اليهِ الوف الوف من طنّات الرمل والطين فاذا صار فصل الشتاء نقلت الريح الغربيّة هذا المحمول الى السواحل فيتراكم عندها وتزيد بها فسحتها امّا الباقي فينتقل الى جهات الشمال وتستبدل ما رسب منها في طريقها بما تقتلعهُ الامواج من السواحل ثم تثور الرياح الغربيّة التي تهبُّ على سواحلنا نحو مئتي يوم في كل سنة فتنقل هذه المواد الى مصابّ الانهار وتدحرها فيها ولولا معاكسة قوّة النهر المنحدر من مشارف الجبل لسدّتها تماماً . على انَّ هـذه القوّة العاكسة هي دون قوّة البحر الذي لا يزال يقيم سورهُ في وجه النهر ويقوّيهِ . وقد لحظ القدماء هذه المظاهر فحسبوها نتيجة القتال الذي انتشب بين اله النهر واله البحر المدعو بوسيدون اذ تراجما بالحجارة . ويذهبون الى ان الحصى المتكوّم عند مصبّ النهر هو كشاهد على هذا القتال المزعوم (١ . وكانوا يجعلون خصوصاً موقع هذه الحرب عنـد مصبّ نهر الدامور حيث يُرى سدٌّ غريب الشكل من صغير الحجارة . وربَّما ساعد البحرَ في عملهِ النهرُ نفسهُ بما يجرفهُ من الجبل من الطين وغيرهِ . نعم انَّ هذه الحواجز غالباً ليّنة رخوة قليلة الثبات تغيّر هيئاتها السيول الشتويّة وتقسمها الى اقسام متعـددة الّا انَّ البحر الذي لا يزال سطحهُ ثابت العاوّ يقوّي هذه السدود ويرصّها حتى يحصل من اجتماعها جزائر مثلّثة الزوايا كما ترى في الليطاني

واكثر ما يظهر عمل البحر على مصبّ الانهار عند نهر ابراهيم . فانك تجد بين ساحل البحر والجسر القديم مسافة ٥٠٠ متر وفي هذه الفسحة آكام رمليّة بينها بعض نباتات من القصب وشجيرات نحيفـة ضاوية تدلُّ على ان الفسحة تزيد متانةً وثباتاً . ومن اعتبر تركيبها وقف على عمل البحر كما انهُ يتبيّن فعل النهر في معاكستهِ . وعندنا انهُ لمن المرجّح كون البحر كان سابقاً يغمر الصخور التي فوقها بُني الجسر العربي القديم . وبقيّة

(١ راجع ديوان الشاعر نونُس (Dionysiaques, l. XLI-XLIII)

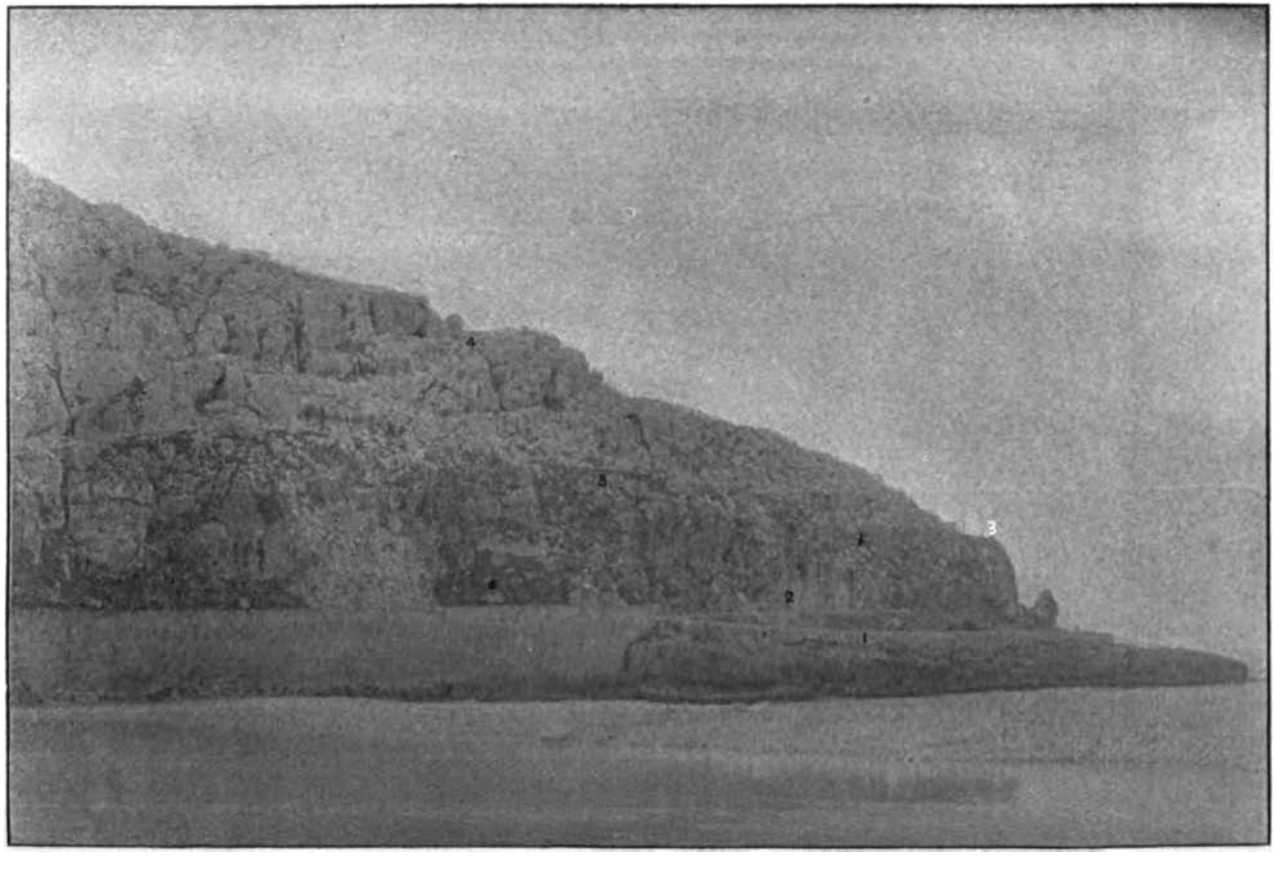

١ طريق العربات ٢ الترامواي اللبناني ٣ السكّة الرومانية ٤ طريق المصريين والاشوريين

السهل التي بين الجسر المذكور والبحر تتركّب من جرف مجاري النهر والبحر المتعاكسة ولا ريب عندنا انّ مياه النهر كانت بعد خروجها من مضيق الوادي تنصبّ في البحر على خط مستقيم على مقتضى ميلها. اذ ليس ثمّة حواجز صخريّة او غير ذلك ممّا يعدل بها عن مسيرها والفسحة كلّها مركبة من رمل وطين يسهل قطعهما. الّا انّ الرياح الغربيّة حملت هناك كميّة وافرة من الرمل أقامتها كربوة وعدلت بمياه النهر نحو الجنوب فزاد مجرى نهر ابراهيم بتوالي الاعصار نحو الف متر. ولعلّهُ كان طال مسيره جنوبًا لولا ما يقوم في وجههِ من الصخور المنتصبة على البحر التي تضطرُّهُ ان يصبَّ في الجون الذي هناك

لمّا نهر الدامور فانّ جرف الرمال البحريّة والطين النهري قد تكوّم عند سدّهِ الجنوبي وارتفع هذا السدّ وتمكّن حتى مال بالنهر الى الشمال

ووجود هذه الحواجز يعمّ كل الانهار اللبنانية حتى انّ نهر الكلب نفسهُ لا يخلو منها رغمًا عن موقعهِ بين الصخور. وهذا النهر يصبُّ توًّا في البحر عند رأس شمالي. امّا الضفّة الاخرى فلا تتّسع اكثر من مئة متر لمجرى المياه. فكان ينبغي للنهر ان يبلغ الساحل بكلّ قوّتهِ بعد خروجهِ من مسيلهِ الحرج فلا يميل يمينًا او شمالًا ومع ذلك ترى عند مصبهِ سدًّا من الرمل متعدّبًا من جهة البحر قائمًا تحت الصخور الشمالية متركبًا من رسوب البحر وجرف النهر (لهُ بقيّة)

شرح كتابة تلّ المتسلّم

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

اكثرت الجرائد المحليّة من ذكر الاثر الجديد الذي اكتُشف حديثًا في تلّ المتسلّم وهو خاتم ثمين من حجر اليشب وجدهُ الدكتور شوماخر في اثناء الحفريّات الجارية هناك برخصة الدولة العليّة فاتى بهِ اخيرًا عزتلو امين افندي وكيل قائمقام حيفا و (القومسيار) متولي نظارة الحفريّات الى حاضرة الولاية ليُرفَع الى المتحف الشاهاني. وكان اكتشافهُ في ٤ صفر من سنة ١٣٢٢ للهجرة الموافق للعشرين نيسان ١٩٠٤ مع عاديّات أخرى من